حكايات نحبها جميعاً

(١٠)

هذه بقيَّة أهل بيتي

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

إنَّهُ الدِّينُ الحَقُّ!!

فِي بَرنَامجٍ تِلفزيُونِيٍّ هَادِفٍ ، تَحدَّثَ أَحدُ المُحَاضِرينَ عَن تَحْريرِ الإسْلامِ للعَبِيدِ ، وَذَكَر عدَّةَ أَمثلةٍ ، مِنَها قصَّةُ مُؤَذِّن رَسُول اللهِ ﷺ (بِلال بن رَباحٍ) رَضيَ اللهُ عنهُ.. ، وركَّزَ علىٰ مَا يلي:

هَذا العَبْدُ الأَسْوَدُ كَانَ من عَبِيدِ (أُميَّة بن خَلَف) ، لَكِن لمَّا دَخَلَ الإيمَانُ إلىٰ شغَافِ قَلبِهِ ، انطَلَقَ يُعلِنُ تَوحيدَ اللهِ وَتَعظيمَهُ..

مِمَّا جَعَلَ سيِّدهُ (أُميَّة) يَسوقُهُ في أزقَّةِ مَكَّةَ كَمَا يَسوقُ الإنسانُ الدَّابَّةَ..! ثُمَّ ازدادَ الأَمرُ

سُوءاً ، فَراحَ يُخرِجهُ إلىٰ الصَّحراءِ اللاهِبَةِ ، ثُمَّ يُجرِّدهُ من ثِيابِهِ ويُلقِيهِ عَلىٰ الرِّمالِ ، ثُمَّ يأْمُرُ عَبيدَهُ أَن يَضَعُوا فَوقَ صَدْرِهِ صَخْرَةً عَظِيمةً ، وَبينَ الحِينِ والحينِ يَقْتَرِبُ منهُ ويُفَاوِضهُ ويُسَاوِمهُ قَائلاً: إمَّا أَن تَتْرُكَ هَذا الدِّينَ الجَديدَ ، وإمَّا ستُعذَّب حتَّى المَوت!!

لكنَّ سيِّدنَا بِلاَلاً كَانتْ أُنشُودَتَهُ الخَالِدَةَ الرَّائعةَ: أَحَدٌ... أَحَد.. فَردٌ صَمَد.. لاَ وَالدٌ.. وَلا وَلَد.. أَحَدٌ.. أَحَد.

وَاستمرَّ الحَالُ علىٰ هَذا المِنْوَال ، حَتَّى جَاءَ أبو بكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عنهُ ، فاشتراهُ مِن (أُميَّة) وَأَعتقَهُ لوَجْهِ اللهِ تَعالَىٰ.

لَكِنَّ الإسْلامَ لا يميِّزُ بَينَ السَّادةِ وَالعَبِيدِ ، وَلا بَينَ الأَغنياءِ وَالفُقَراءِ ، وَلاَ بينَ جِنْسٍ ،

وجِنْسٍ ، وَلا.. ، إنَّما مُلخَّص المَسألـة كَمَا قَالَ اللهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾

[الحجرات: ١٣] .

وَكَـانَـتْ جَـائِـزَةُ بِـلاَل أَنَّـه أَصبـحَ مُـؤذِّن رَسـول اللهِ ﷺ ، حتَّـىٰ إذا مَـا كَـانَ فَتْـحُ مكَّـةَ المُكرَّمة.. ، وَوَقَفَ الجَمِيعُ بَينَ يَدي القَائِد الفَاتِح رَسُول اللهِ... ، وَكَانَ المُشْرِكُونَ يَنْتَظِرونَ القَرارَ الحَاسِمَ من القَائِدِ ، وَلعلَّ مِنَ العَدالةِ أَنْ يَكُونَ القَرارُ قَطْعَ رُؤوسِهِم علىٰ عَجَلٍ!

كَيـفَ لاَ؟ وَهُـمُ الـذيـنَ آذوهُ.. وَأهـانُـوهُ.. وَعـذَّبـوهُ.. وَحَـاصَـروهُ اقْتِصَـادِيـاً.. وَاتَّهمـوهُ اتِّهامَاتٍ شَنِيعَةً ، فَقالُوا عَنهُ: كذَّابٌ... وَشَاعِرٌ.. وَسَاحِرٌ وَنحو ذَلِكَ. لَقَدْ قَتَلُوا بَعضَ أَصحابهِ كَسُميَّة وَغَيرِهَا.... ، لقَدِ انقَضُّوا علىٰ المَدِينَةِ المُنوَّرةِ فَحَاصَروهَا مِراراً.. وَجيَّشُوا الجُيوشَ

بِهَـدفِ إسْقَـاطِ مَـواقِـع المُسْلميـنَ وإربـاكِ سَاحَاتِهِمِ..

وَفي تِلكَ السَّاعةِ الحَرِجَةِ وَقفَ الرَّسولُ صَلواتُ اللهِ عليهِ يُنَادي: أينَ بِلاَلُ بن رَباح؟! وَجَاءَ بِلاَل.. فَأَمرهُ الرَّسولُ أن يَصْعَد إلىٰ سَطْحِ الكَعْبَةِ.. والكَعْبةُ كَما نَعلمُ هيَ مِن أَشرَفِ الأَماكِنِ وأفضَلهَا.. ليُعلنَ مِن هُناكَ: اللهُ أكبرُ.. حيَّ علىٰ الصَّلاةِ..

لِمَاذا بِلاَلُ يا رَسولَ اللهِ؟! وَلماذَا لَمْ يأمرْ عَلياً أو أَبَا بَكْرٍ أَو عُمَر؟!

إنَّهُ يُريدُ أَن يُؤكِّدَ عَلىٰ فِكْرَةِ المُسَاواةِ والعَدَالةِ ، فَلا فَرقَ بينَ أَحْمَرَ وَأَسوَدَ أَو بينَ أَبيضَ وَأَصفَر.. إلاَّ بالتَّقْوىٰ..

وَفِـي نِهَـايـةِ البـرنَـامـجِ المُفِيـد تَـلاَ أَحـدُ

المُحَاضِرينَ بَعضَ الآياتِ القُرآنيَّةِ ، والتي فِيهَا الدَّلالةُ الواضِحَةُ علىٰ نَظرةِ الدِّينِ الحَنيفِ لِكلِّ النَّاسِ نَظْرَة المُساواةِ والسّواسيَةِ ، وَعَلىٰ أنَّ المِيزانَ الذي يميِّزُ النَّاسَ هُوَ العَملُ الصَّالحُ والتَّقوَى وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ..

وَبعدَ الاسْتِمَاعِ إلىٰ البَرنَامجِ دَارَ نِقَاشٌ هَادئٌ بينَ أَفرادِ أُسْرَة الأُستاذِ (نَاجِي).. لكنَّ هُنـاكَ أَمراً احتجَّـتْ عَليـهِ (ناهـدٌ): وَهوَ لِماذَا لمْ يَضْـرِبِ المُحَـاضِـرونَ أيَّ مِثَـالٍ عَنِ امْرأَةٍ منَ النِّسـاءِ.. وَكَـأنَّ المَسأَلـةَ تَخـصُّ الرِّجَـال فَقَطْ!!

فَقالَ الأُستاذُ (نَاجِي) مُمَازِحاً ابنَتهُ (نَاهِد): وَهذِهِ مُهمَّتكِ يَا عَزيزَتي ، وَليكُنْ بَحثُكِ عن وَاحِدةٍ ـ أَو أكثرَ ـ مِن عَالمِ النِّساءِ..

في عَالمِ كُتُبِ السِّيرِ والتَّراجِمِ

وَفِي صَبيحَةِ اليَومِ الثَّاني ، انطَلَقَتْ (نَاهدٌ) إلىٰ المَكْتَبَةِ الوَطنيَّةِ ، وَراحَتْ تَبْحثُ عَن قَصَصٍ وحكَاياتٍ مِن عَالمِ النِّساءِ تُشْبهُ حِكَايةَ مُؤذِّن الرَّسولِ ﷺ..

لكِن حَقاً إنَّهُ لأَمرٌ عَجيبٌ.. بينَ الحِينِ والحِينِ نَسمعُ عَن حكايةِ واحِدٍ من الذينَ أَمْضَوْا حَياتَهُم بينَ الكُتُبِ والمُجَلَّداتِ.. ونَسمعُ عن كَيْفيَّةِ مَوتِ (الجَاحِظِ) تحتَ الكُتُبِ والمُجلَّداتِ..، فَنَتساءَلُ:

كَيفَ يَسْتَغرِقُ البَاحِثُ في المُطَالَعاتِ وَيَنْسَىٰ نَفسهُ ومن حَوْلَهُ؟!

إنَّه أَمرٌ عَاديٌّ ـ قَالتْ (نَاهِدٌ) فِي نَفْسِهَا ـ

وَهَا أَنا ذَا قَد مَضَىٰ علىٰ دُخولِي إلى القَاعَةِ ما يَزيدُ علىٰ (٤) سَاعَاتٍ!!

وَراحتْ تُرتِّبُ الأَوراقَ التي كَتَبتْ عَليهَا، وحَتَّىٰ تَكَوَّنَ لديهَا المُلخَّصُ التَّالِي:

كَانَ الرَّسولُ ﷺ يُنَادِيهَا: يَا أُمَّه!!

كَانَتْ (بَركةُ بنت ثَعْلَبة) خَادِمَةً عندَ عَبدِ اللهِ ـ وَالِد رَسول اللهِ صَلواتُ اللهِ عليه ـ وَلمَّا مَاتَ عَبدُ اللهِ ودُفِنَ في يَثْرِبَ.. رَاحتْ (آمنةُ بنت وَهْبٍ) تَخرجُ فِي كلِّ عامٍ إلىٰ المَدِينَةِ تَزُورُ زَوجَهَا.. وَمعَها ابنُها رَسول اللهِ صَلواتُ اللهِ عليهِ.. وَكذلكَ (بَرَكَة: أُمُّ أَيمَن)..

وَفِي إحدَىٰ الزِّياراتِ.. وَفِي طَريقِ العَودةِ من يَثْرِبَ إلىٰ مكَّةَ.. مَرضتْ (آمِنَة) فِي منطقَةِ (الأَبواءِ).. ثُمَّ مَاتتْ.. وَدُفِنَتْ هُناكَ..

وَكَانَ عُمْرُ رَسولِ اللهِ يُقاربُ السَّادِسَةَ.. فَمَا كَانَ مِن (أُمِّ أيمَنَ) إلاَّ أنْ حَضنَتْ رَسولَ اللهِ وَعطفَتْ عَليهِ.. وَراحَتْ تَرعاهُ كَمَا لو أَنَّه ابْنُها..

وَعَادتْ بِه إلىٰ مكَّة المكرَّمةِ.. فَمَا كَانَ من جَدِّه إلاَّ أَن أوصَاهَا بهِ خَيْراً.. وَكَانَ يُكَافِئهَا علىٰ ذَلِكَ..

لِذلكَ مَا كَانَ الرَّسولُ يَلْتَفِتُ إلىٰ جَانِبِهِ إلاَّ يَرىٰ (أُمّ أَيمنَ).. لاصقَةً بهِ.. تَرعَاهُ، وَتَحْنُو عَليهِ.. حَتَّىٰ إنَّهُ ﷺ كَانَ يُنَادِيهَا: «يَا أمَّه».. فَكانَتْ تَفْرحُ لِذَلكَ فَرَحاً كَبِيراً.

حَتَّىٰ إذَا ما شَبَّ وكبرَ.. وتزوَّجَ مِن خَدِيجَة بنت خُوَيلدٍ رَضِيَ اللهُ عنهَا.. أَعتَقَ (أُمَّ أَيمنَ) وَهوَ يَقولُ لهَا: «إنَّكِ بقيَّةُ أَهل بَيْتي».

في رِحَابِ أُمِّ أَيمَن المُجَاهِدَة

وَمِن بَرَكَتِهَا.. وَإكرَامِ اللهِ لهَا.. وَذَلكَ لما قَدَّمت في سَبيلِ تَربِية رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّه هَداهَا إلىٰ الطَّريقِ القَوِيمِ.

فَكَانَتْ مِن أَوائِلِ الذينَ دَخَلُوا في الدِّينِ الإسْلاميِّ، بَعدَ خَدِيجَة وَعليّ وَأبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُم أَجْمَعِين..

لِذَلكَ تعرَّضَتْ لأَذى أَهل قُرَيشٍ وَعَنَتِهم، فهاجرتْ مَع المُهَاجرينَ إلىٰ الحَبَشةِ، ثُمَّ إلىٰ المَدِينَةِ المُنوَّرَةِ، وبَايعتِ الرَّسولَ صَلواتُ اللهِ عليهِ عَلىٰ السَّمْعِ والطَّاعةِ والنُّصْرَةِ..

وَلمَّا كَانَتِ الغَزَواتُ شَاركَتْ (أُمُّ أَيمنَ) في غَزوَةِ (أُحُدٍ)، فَكَانتْ تَقُومُ بِسقَايَةِ العَطْشَىٰ،

وَبِمداواةِ الجَرحَىٰ ، وَبتَشْجِيعِ المُحَارِبينَ في سَبيلِ اللهِ..

وَهَكَذا فِي غَزْوَةِ خَيْبَر.. ، وكَذَلِكَ في (حنَيْن) حَيثُ سَقَط ابنُها (أيمَن) شَهِيداً ، فَفَرِحَتْ واستَبْشَرتْ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ..

وَفِي (مُؤْتَة) استشهدَ ولدهَا (زَيدُ بنُ حَارِثَة) وَكَانَ أَميراً علىٰ الجَيشِ ، فَلمَّا وَصَلهَا خَبَرُ اسْتِشْهَادِهِ زَغْرَدَتْ.. وَرفَعتِ كَفَّيْها إلىٰ اللهِ قَائِلةً: الحَمدُ للهِ الذي شَرَّفنِي باستِشْهادِهِ ، وَأسأَلُ اللهَ أن يَحْشُرَنِي وإيَّاهُ مَعَ النَّبيِّين والصِّدِّيقينَ وحسُن أُولئِكَ رَفِيقاً..

مَعَ الرَّسُولِ ﷺ دَائِماً!

وَلمَّا أعتقَهَا رَسولُ اللهِ تَزَوَّجَتْ (عُبَيدَ بنَ زَيدٍ

الخَزْرَجِيَّ) فَوَلدتْ لَهُ (أَيمَن) ثُمَّ تَزوَّجَها (زَيدُ ابنُ حَارِثَة) فَوَلدتْ لَهُ (أُسامَة).

وَلمَّا سُئِلَ (زَيدٌ): لِمَاذا أقدَمْتَ عَلىٰ الزَّواجِ مِن (أُمّ أيمن)؟ قَالَ:

لأنِّي سَمعتُ الرَّسولَ صَلواتُ الله عَليهِ يَقولُ ذَاتَ مرَّةٍ: «مَن سَرَّهُ أَن يتزوَّجَ امْرأَةً من أَهْلِ الجنَّةِ فَليتزوَّجْ أُمّ أيمَن».

لِذلكَ كَانَ رَسولُ اللهِ يَزُورهَا في بيتِهَا.. وَيُداعِبُها.. وَيلاطِفُها.. وينَادِيهَا: «أُمّ أَيمَن أُمِّي بَعدَ أُمِّي».

وَكَانَ يُلقِّبُ زَوجهَا (زَيد) الحِبّ.. ويلقِّبُ ابنَها (أُسَامَة): الحِبّ بن الحبّ.. حيثُ كَانَ يُحبُّ (أُسَامَة) كَمَا يُحبُّ الحَسَنَ والحُسَين. رَضِيَ اللهُ عَنهُم أَجمَعينِ.

وَلذلِكَ حَظِيتْ (أُمُّ أَيمَن) بالصُّحبَةِ القَرِيبَةِ جَداً من رَسولِ اللهِ صَلواتُ اللهِ عَليهِ.

آه! مَا أَصعَبَ الفِرَاق!!

ولمَّا انتقلَ الرَّسولُ ﷺ إلى الرَّفِيقِ الأَعْلىٰ حَزِنَتْ (أُمُّ أَيمَن) حُزناً شَدِيداً، وَرَثَتهُ بِقَصيدَةٍ رَائِعَةٍ ، جَاءَ فِيهَا:

عَينُ جُودِي فَإنَّ بِذلِكَ للدَّ
مع شِفاءً فَأَثْرِي مِنَ البُكَاءِ
حِينَ قَالُوا الرَّسولُ أَمْسَىٰ فَقِيداً
مَيِّتــاً كَــانَ ذاكَ كُــلَّ البَــلاءِ
وابكِيَا خَيْرَ مَن رُزِئْناهُ في الدُّنيَا
وَمَن خَصَّهُ بِوَحي السَّماءِ

وَبَقِيَ الصَّحابةُ الكِرَامُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهَا وَمَكَانَتَها وَقُربَها من الرَّسولِ صَلواتُ اللهِ عَليهِ ،

دَليلُ ذلك مَا وَرَدَ في صَحِيحِ مُسْلمٍ عن أَنسٍ رَضيَ اللهُ عَنهُ قَالَ:

قَالَ أَبو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عنهُ لِعُمَر رَضيَ اللهُ عنهُ: انطلقْ بِنا إلىٰ أُمِّ أيمَنَ نَزُورُها كَمَا كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَزُورهَا.

قَالَ: فَلمَّا انتَهينَا إليهَا بَكَتْ.

فَقالَ لَها: ما يُبكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ لرَسُولِهِ.

فَقالَتْ: مَا أَبكِي أَن لاَ أكون أعلمُ أنَّ مَا عِندَ اللهِ خَيرٌ لِرَسولهِ ﷺ، وَلكنْ أَبكي أنَّ الوَحيَ قَدِ انْقَطعَ مِنَ السَّماءِ.

فهيَّجتهمَا عَلىٰ البُكاءِ، فَجَعلا يَبكِيانِ مَعَها..

وَلَمْ تَمْضِ خَمسةُ أشْهرٍ عَلىٰ انتقالِ رَسولِ اللهِ إلىٰ الرَّفِيقِ الأَعلىٰ حَتَّىٰ فَارقتْ (أُمُّ أَيمنَ) الدُّنيَا.. لِتلحقَ بالصَّالِحينَ، وَتُحشَرَ

فِي جِنَانِ الخُلدِ يَوم الدِّينِ..

وَمَسحَتْ (نَاهِدٌ) دُموعَ عَينيهَا وَهِيَ تُرَتِّلُ:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] .

وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالمِينَ